ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد : 07، العدد : 01 (2022) ص : 76 – 91

المكان ودلالاته في الرواية الفلسطينية المعاصرة -قراءة في رواية الميراث لسحر خليفة-

Place and its significances in the contemporary Palestinian novel-a reading in the novel "The inheritance" by Sahar Khalifa

ط.د. مامن أمينة*
جامعة عباس لغرور -خنشلة – الجزائر
amina.mamen@univ-khenchela.dz

أ.د. مجيد قري
جامعة عباس لغرور -خنشلة – الجزائر
madjid.guerri@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 / 05 / 19
تاريخ القبول:
2021 / 12 / 19

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المكان
- ✓ الدلالة
- ✓ العتبات النصية
- ✓ الرواية الفلسطينية
- ✓ اتفاقية أوسلو

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن دلالة المكان في رواية "الميراث" للكاتبة الفلسطينية "سحر خليفة"، حيث حاولت هذه الروائية الوقوف عند الفترة الممتدة بعد اتفاقية أوسلو وتأثيراتها على مختلف الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمكان و الذي كان له دور في تجسيد الواقع الفلسطيني. يتجسد المكان ويتطور من بداية الرواية وصولا إلى نهايتها ليعكس بذلك تجربة الروائية التي عاشت بالغربة (الولايات المتحدة الأمريكية) ثم عادت إلى وطنها (فلسطين)، والغاية من هذه الدراسة هو استجلاء الدلالات الكامنة وراء توظيف عنصر المكان الذي بدا حاضرا في النص الروائي بشكل واضح من خلال العتبات النصية، وكذلك من ناحية التشكيل الفني وذلك من خلال تفاعله مع مختلف عناصر النص من زمن وشخصيات وأحداث.

Article info

Received
19/05/2021
Accepted
19/12/2021

Keywords:
- ✓ *Place*
- ✓ *Significance:*
- ✓ *Textual thresholds*
- ✓ *Palestinian novel*
- ✓ *Oslo accords*

Abstract :

This study aims to disclose the place's significance in the novel "The inheritance" by the Palestinian writer "Sahar Khalifa". In fact, the writer tries to examine the post-Oslo period and its effects on the political, the social and the economic conditions of the place which plays a role in reflecting the Palestinian reality. Importantly, the place element has been well embodied and developed in the novel, thus reflecting the novelist's experience who lived in exile (the United States of America) and then returned to her homeland (Palestine). In this regard, a special attention is addressed to the potential significances of the place element which is clearly present in the narrative text through textual thresholds as well as in terms of artistic formation through its interaction with various elements of the text such as: time, characters, and events.

* المؤلف المرسل : ط.د. مامن أمينة

مقدمة

يشكل المكان أحد العناصر المكونة لبنية النص الروائي، فهو يشير إلى الإطار الذي تقع فيه الأحداث والمساحة التي تتحرك فيها الشخصيات الروائية، وبالتالي فهو عنصر هام وله حضوره السردي وأبعاده الدلالية الهامة، إذ "يعد العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل ببعضها البعض، كما يعد الأرضية التي تتحرك عليها الأحداث لأن الصراع في العمل الفني بين الشخصيات لا يحدث في الفراغ، بل يضمنه زمان ومكان محددين" (زكي العيلة، 2003، ص. 62).

لقد احتل المكان أهمية كبيرة في الرواية الفلسطينية، واكتسب خصوصية معينة يعود سببها إلى وجود طرفين متنازعين حيث يسعى كل واحد منها إلى السيطرة عليه من أجل بسط النفوذ وإثبات الوجود، فهو يعيش داخل الفلسطيني يحمله معه سواء كان خارج الوطن أم داخله نتيجة شعوره القوي بالانتماء إلى الأرض والتمسك بها، ولهذا نجد أن معظم الروايات الفلسطينية اهتمت بالمكان ووصفه وتتبع جزئياته لأنه يحمل الكثير من المعاني والرموز المتعلقة بتاريخ القضية الفلسطينية الطويل والمقاومة الفلسطينية عبر مختلف مراحلها.

وتعتبر "سحر خليفة" من بين أشهر الروائيين الفلسطينيين الذين كتبوا عن المقاومة الفلسطينية عبر مراحلها المختلفة، حيث استطاعت أن تنتج أعمالا في مستوى راق من البناء والمضمون بأسلوب واقعي وتسجيلي بعيد عن الرومانسية. فأبرزت القضية الفلسطينية في أعمالها، وعملت على إظهار دور الثورة الفلسطينية في تغيير الواقع الفلسطيني الذي طالما عمل الاحتلال الصهيوني على إفساده بشتى الطرق والوسائل. وتعتبر رواية "الميراث" من بين إبداعاتها التي استطاعت من خلالها أن تنتفض على واقع السلطة الوطنية الفلسطينية عقب اتفاقية أوسلو. وبما أن المكان مكون حقيقي وفني في بناء الرواية، فسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على التساؤلات التالية: ماهي أنماط المكان الموظفة في الرواية؟ وماهي دلالاتها؟ وهل وفقت الكاتبة في تبليغ رسالتها للقارئ؟

1. مضمون الرواية

إن "الميراث" هي الرواية السادسة لسحر خليفة، وقد صدرت طبعتها الأولى عن "دار الآداب، بيروت" سنة 1997، وتتكون الرواية من 317 صفحة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء هي:

الجزء الأول : موسوم بـ "بلا ميراث".

الجزء الثاني: موسوم بـ "الميراث".

الجزء الثالث: موسوم بـ "ثم التركة".

تدور أحداث الرواية في جزئها الأول حول حياة اللاجئ الفلسطيني الذي يجوب العالم باحثا عن القوت والأمن والاستقرار، وقد مثلته شخصية (محمد حمدان) الذي قدمته الرواية على أنه ابن أمير(إشارة إلى أصل الفلسطيني العريق) سرقت إمارته (إشارة إلى فلسطين المحتلة) من قبل البدو(إشارة إلى اليهود)، الأمر الذي جعله يهرب إلى الجزء غير المحتل من القدس ليصبح لاجئا داخل وطنه، ثم اتجه إلى دول عربية كلاجئ بها، لتنتهي رحلته بالاستقرار بأمريكا أين تمكن من الحصول على البطاقة الخضراء بعد زواجه من أمريكية، فحقق نجاحا

ماديا باهرا بعد عمله في مجال التجارة لكن إحساسه بالغربة ظل يلاحقه طيلة حياته، وانتقل هذا الإحساس بالضياع والغربة إلى ابنته (زينب/زينة محمد حمدان) التي فقدت الإحساس بوجودها في هذا البلد الأجنبي، فراحت تبحث عن أصلها.

أما الجزء الثاني من الرواية، فقد تحدث عن مرحلة جديدة من تاريخ الشعب الفلسطيني والمتمثلة في اتفاقية أوسلو وما تبعها من أحداث. عبرت عنها الروائية من خلال مجموعة من الشخصيات المتنامية والتي يأتي في مقدمتها (زينة حمدان) التي قررت العودة من أمريكا إلى بلدتها وادي الريحان الواقعة بالضفة الغربية بحثا عن حصتها من ميراث أبيها، بعد أن تلقت رسالة من عمها الذي دعاها إلى ضرورة العودة إلى الوطن. تعيش (زينة) مجموعة من التجارب لتتعرف من خلالها على واقع وطنها وتفاصيله وخفاياه، فتسرد مشاعرها اتجاه المكان الذي أصبح يشكل بالنسبة لها غربة ذلك أنه أنكرها وأنكرته في الوقت نفسه، خاصة بعد اكتشافها أن الجنين الذي تنتظره زوجة أبيها والذي سيحجب الميراث عن العائلة موجود في أحشائها نتيجة لجوئها إلى مستشفى إسرائيلي بهاداسا من أجل تلقيح اصطناعي لتضمن هي الأخرى الحصة الكبرى من الميراث.

أما الجزء الثالث والأخير فقد تحدث عن مرحلة انهيار الاتفاق وما تبعه من أحداث مثل هدم البيوت وإغلاق الطرق وتوسيع المستوطنات القديمة، وبناء أخرى جديدة...ليكتشف الناس أن هذا الاتفاق مجرد حبر على ورق. وهذا ما يبينه عودة (زينة) إلى أمريكا تاركة وراءها مولودا ذكرا على أساس أنه أخوها، لكنه في الحقيقة من أصل يهودي، وبإمكانه حجب الثلثين من الميراث (فلسطين) خاصة وأن أمه (فتنة) ماتت لحظة إنجابه بعد أن أنهت دورها الخياني، لتأتي النهاية مفتوحة على المجهول، "فروايات سحر لا تقفل الباب على نفسها، بل تظل مفتوحة على رواية أخرى ستجيء، وكأنها أرادت أن تشكل من أعمالها عملا له بداية وليس له نهاية" (عبد الرحمن ياغي، 1999، ص. 158).

2. مكانية العتبات

1.2. عتبة الغلاف

يعتمد الغلاف في عملية إخراجه على مضمون المتن الروائي، فهو لم يعد "حلية شكلية بقدر ما يدخل في تضاريس النص، بل أحيانا يكون هو المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص" (مراد عبد الرحمن مبروك، 2002، ص. 124) ، فيعطي قراءة أولية موازية للنص الأم لأنه يحمل دلالة لغوية وصورة بصرية تمارس سلطة الإغراء على المتلقي.

يحتوي الغلاف الأمامي لرواية "الميراث" على صورة تتوسطه للثقب الذي يدور فيه مفتاح الباب، وداخل هذا الثقب توجد صورة ضبابية غير واضحة المعالم لإنسان جالس على ركبتيه يحمل بين يديه أمرا معينا و رأسه متجه إلى ما وراء الثقب، تتدلى من رقبته سلسلة حديدية في نهايتها مفتاح صغير. وردت الخلفية الموجودة وراء هذا الإنسان بلون بني على يمين الصورة ولون أصفر فاتح على يسارها و يتخللهما بعض البياض، في حين كان اللون البني هو المسيطر على صورة الإنسان وإطار الثقب الذي يحيط به اللون الأبيض ليغطي سائر الصورة. أعلى الصورة عنوان الرواية وتحته اسم الكاتبة بلون أسود، وفي أقصى اليسار كلمة رواية في إطار أخضر مما يجعل الأسئلة الآتية تتبادر إلى

الذهن: لماذا صورة ثقب المفتاح؟ ولماذا احتوت هذه الصورة على ملامح غير واضحة لإنسان جالس على ركبتيه؟ وماهو دليل البياض الذي يلفها؟ وهل لشكل المفتاح علاقة بالمتن الروائي؟

جاءت صورة الغلاف موضحة لسر الرواية منذ البداية، فمن المعروف أن المفتاح أحد العلامات الثقافية الفلسطينية، حيث إن الفلسطينيين يعبرون من خلاله عن تمسكهم بحق العودة إلى الأراضي المحتلة التي أجبروا على الخروج منها بعد نكبة 1948 ونكسة 1967، ولم يعد هذا المفتاح حكرا على اللاجئين الذين غادروا الوطن فحسب، وإنما أصبح رمزا يدل على الهوية الفلسطينية. إن صورة الثقب الذي يدور فيه المفتاح تستدعي حضور المكان الذي يرمز إلى الوطن، فالصورة الموجودة داخل هذا الثقب لإنسان جالس على ركبتيه في مكان واحد تدل على حال شعب هذا الوطن، وهي دليل الحزن والكآبة التي سيطرت على شخصيات الرواية ويأتي في مقدمتها الشخصية البطلة (زينب حمدان) العائدة من الغرب بحثا عن حقها في "الميراث" و الذي اختارته الكاتبة عنوانا للرواية، فكان مكتوبا أعلى الصورة وقد رسمت ألف المد مفتاحا كذلك لتربط الروائية بين العنوان والصورة. أما شكل الإنسان الجالس على ركبتيه بملامح غير واضحة، فهو يمثل بقية شخصيات الرواية التي كانت تعاني الشعور بالإحباط وفقدان التوازن النفسي نتيجة الأوضاع المزرية التي تعيشها البلاد مما أدى إلى إحساسهم بالاغتراب وهو ما عبرت عنه الصورة من خلال المفتاح المعلق في رقبة هذا الإنسان، فحق العودة إلى فلسطين والاستقرار بهذا بات واجبا معلقا في رقبة كل فلسطيني بعيد عن وطنه في الشتات أو المهجر، لكن الأمل في الاستقرار يظل دائما وهذا ما يفسره اللون الأبيض- فهو يرمز إلى الأمل- حيث طغى على الغلاف الأمامي وكذلك الخلفي الذي احتوى بدوره على نص يتكون من ستة أسطر مقتبس من الرواية، وكذلك أهم أعمال الروائية "سحر خليفة" كتركيز على ذاتها.

إذن فصورة الغلاف شكلت نصا بصريا جاء يحمل حضورا مكانيا حيث يمكن للقارئ الفطن أن يستشف دلالاته في أول مواجهة معه، كما أنه يحمل رؤية لغوية للمتن الروائي الذي يأتي بعده.

2.2. عتبة العنوان

يعتبر العنوان العتبة النصية الأولى للقارئ، فهو يحيلنا إلى ما في داخل النص لأنه يرتبط به ارتباطا وثيقا، وقد "حظي العنوان بأهمية كبرى في الدراسات السيميولوجية، إذ يعد نظاما سيميولوجيا ذا أبعاد دلالية شديدة التنوع والثراء، وأخرى رمزية، فهو عتبة النص للمتلقي، وأول لقاء مادي بين المرسل والمتلقي، فالعنوان إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي يحمله للمتلقي باعتباره مفتاحا يلج به أغوار النص قصد محاكاتها وتأويلها" (عيسى برهومة، 2007، ص. 147)، وبالتالي فهو وسيلة للمتلقي من أجل فهم النص وتحليل رموزه ذلك أنه يرد " في شكل صغير، ويختزل نصا كبيرا عبر التكثيف والإيحاء والترميز والتلخيص" (جميل حمداوي، 2006، ص. 220)، فما هي خصائص عنوان "الميراث"؟ وما علاقته بالمتن الروائي؟

إن الباحث في رواية "الميراث" يتساءل عن نوع هذا الميراث ومصدره، ومن هو الوارث والموروث؟ مما يدفعه إلى القراءة داخل النص للبحث عن قصته، فالميراث في اللغة من الفعل ورث، يرث، إرثا وميراثا، ومعناه انتقال الشيء من شخص إلى آخر. إن العنوان في الرواية جاء يحمل دلالات اجتماعية وسياسية وحضارية مرتبطة في الأصل بالمكان وهو الوطن، فكان ميراث (زينة) التي عادت من أمريكا إلى

الوطن بعد رحلة اغتراب طويلة من نصيب الصبي المشوه الذي سلمته جدته إلى الجنود على مستوى الحاجز الإسرائيلي قائلة "Thank you very much, this is your share"، (سحر خليفة، 1997، ص. 316) بعد أن كان ميراث أمه (فتنة) الموت في سبيل إنجاب الولد الذكر الذي يحجب الميراث. وكان ميراث (نهلة) الفتاة المتعلمة التي قضت شبابها بالكويت وضحت بأجمل سنين عمرها جسد السمسار العجوز الذي لم يسمح لها أبناؤه حتى بالتمتع بأملاكه التي سجلها باسمها أين ضغطوا عليها من خلال خطفها لتقوم بالتنازل عنها. وكان ميراث (فيوليت) الرحيل إلى أمريكا نتيجة نظرة المجتمع إليها على أنها جسد مباح للجميع، وإحساسها بالغربة رغم أنها تعيش بوطنها. أما ميراث وادي الريحان (فلسطين) من اتفاق أوسلو، فكان استمرار الحصار حوله وتأزم أوضاع الشعب نتيجة الاضطهاد المسلط عليهم من قبل الاحتلال الصهيوني.

3.2. عتبة الإهداء

يمثل الإهداء عتبة مهمة من عتبات النص، فهو يحمل خصوصية وظيفية تنبني على قصدية معينة تتوجه نحو بناء دلالات عديدة،فوجوده في النص الأدبي ليس تلقائيا أو مجرد إضافة تمثل توجه المؤلف وشخصيته لأنه لا يخلو من قصدية " تحمل داخلها إشارة ذات دلالة توضيحية" (حسن محمد حماد، 1997، ص. 64)، وهذا يعني أن للإهداءات وظائف تداولية وتأويلية وتفسيرية.

تقول سحر خليفة في إهداء رواية " الميراث": " إلى الحفيدة الصغيرة سحر الديسي عساها تكتشف الميراث..." (سحر خليفة، مرجع سابق، ص.07). إن المتأمل في هذا الإهداء يكتشف أن الروائية جعلت منه " خروجا نوعيا لجيل لاحق تراهن عليه الكاتبة في تشكل وعيه بطريقة عصرية مكاشفة للتاريخ وأحداثه عبر النص من حيث هو وثيقة مكتوبة لا من حيث الاعتماد على مصادر شفهية يتناقلها الناس" (مصطفى الضبع، د.ت.، ص. 49)، وبالتالي فإن الكاتبة وجهته إلى الحفيدة الصغيرة وهي تقصد من وراء ذلك الجيل الجديد الذي سيكون عليه تحمل هذا الميراث والمحافظة عليه. إن ما يهمنا نحن في هذا الإهداء هو الإحاطة بالبعد الدلالي لملفوظ "الميراث"، والملاحظ للإهداء الذي قدمته "سحر خليفة" يكتشف أنها حملت هذا الملفوظ مجموعة من الدلالات الاجتماعية والسياسية والحضارية لتدفع بالقارئ إلى الدخول في النص السردي بعد أن تنتابه الرغبة الشديدة في اكتشاف سر هذا الميراث الذي جعلته الكاتبة عنوانا لروايتها، كما جعلته الأمنية التي أرادت من الحفيدة تحقيقها، ليتضح في النهاية أن هذا الميراث هو رمز لوطنها فلسطين الذي جعلته أمانة في عنق الجيل الصاعد، لينتقل بذلك ملفوظ الميراث " من البعد التخيلي الذي ينطوي عليه العنوان إلى بعد واقعي مرجعي تتضمنه صيغة الإهداء في الرواية " (عبد الفتاح الحجمري، 1996، ص. 28).

3. أنماط الفضاء المكاني ودلالاته في الرواية

1.3. المكان المفتوح

1.1.3. المدينة

شكلت المدينة عند الكتاب الفلسطينيين "إطارا مكانيا للعديد من الروايات الفلسطينية وكان كتاب الأرض المحتلة أكثر اهتماما من غيرهم بالمدينة الفلسطينية؛ لأنهم مازالوا يعيشون واقعها الجغرافي ويشهدون التحولات المختلفة التي تطرأ عليها" (عدنان عثمان الجواريش، 2003، ص. 93)، فعندما تمثل المدينة في الرواية، يمثل معها الوطن بمختلف أبعاده الجغرافية والسياسية والاقتصادية والتي تشكل مع

سكانه مظهرا من مظاهر التلاحم الوجودي. وإذا كان طابع الرومانسية قد غلب على الكتاب الفلسطينيين في رسم العلاقة التي تجمع بين الفلسطيني وأرضه، "فإن الصورة عند سحر خليفة تختلف إذ هي أقرب إلى الواقعية منها إلى الرومانسية، فبدا المكان أكثر واقعية وأكثر موضوعية في تجسيد هذه العلاقة" (كريمة زكي أحمد نصر، 2015، ص. 72)، حيث إنها جعلت المكان في رواياتها يعبر بصفة عامة عن الحالة النفسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية لأصحابه.

أ. المدينة الغربية (أمريكا)

تتحدث الرواية في جزئها الأول عن موضوع الهجرة إلى الغرب من خلال شخصية (محمد حمدان) الذي هاجر إلى مدينة نيويورك واستقر بها بعد أن هرب إلى القدس ثم القاهرة ومراكش. تزوج (محمد حمدان) من أمريكية وتمكن من الحصول على البطاقة الخضراء، ثم عمل في بيع الخردة والمنتجات الصينية على أنها منتجات مقدسة من الأراضي المقدسة، "كان أبي يبيع البضائع من أي مكان في العالم على أنها منتوجات مقدسة من الأراضي المقدسة" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 11). لكنه لم يستطع أن يتخلى عن تقاليد الشرق التي حملها معه خاصة بعد أن كبرت ابنته (زينب) وأصبحت مراهقة. كان يذكرها في كل مرة بأصلها ويقدم لها صورة فاضلة عن قريتهم وادي الريحان، وهذا ما جعلها تعيش أجواء الوطن من خلال ذاكرة الأب "فرق كبير، مسافة طويلة، بين نيويورك وواشنطن ووادي الريحان. وادي الريحان كانت دائما في ذاكرتي على عكس نيويورك. بلدة صغيرة، بلدة نقية، أهلها بسطاء يحبون الخير والطبيعة. بعكس نيويورك." (المصدر نفسه، ص. 11). وبالرغم من كل هذا فإن (زينب) عاشت صراعا بين البيت الشرقي الذي يحارب إظهار الغرائز وبين المكان الغربي (أمريكا) الذي يسمح بذلك، هذا ما جعل الأب يقرر العودة إلى الوطن خوفا من انهيار منظومة الشرف التي تربى عليها كشرقي، فنجده يقول: "شو عم نستنى يا إخوان؟ ما شبعنا من أمريكا وقرف أمريكا؟ كلنا عندنا أولاد وبنات، يعني بدكم بناتكم يطلعوا فلتانات زي بنات أمريكا...هناك العيشة يا إخوان. هناك تحكي عربي وتاكل عربي وتشرب قهوة عربي بعربي" (المصدر نفسه، ص. 16). لم يرجع (محمد حمدان) إلى وطنه بل افتتح بقالة جديدة في "نيوجرسي"، لكن ارتباطه بأمريكا بقي هشا لأنه قائم على مصلحة اقتصادية بالدرجة الأولى. وعندما اكتشف حمل ابنته (زينب) بولد غير شرعي، حاول قتلها بعدما هربت منه ولجأت إلى جدتها الأمريكية (ديبورا) التي اقترحت عليه أن يخبر جيرانه أنه قتلها وغسل العار، "لكنني لم أنس منظره وهو يقطع الممر، ذراعه مربوطة إلى عنقه، وظهره محني تحت وطأة عار تراكم منذ آلاف السنين. صحت بأعلى صوتي سامحني بابا. أدار وجهه وأشار بيده السليمة نحو السماء...واختفى في الطريق إلى الأبد" (المصدر نفسه، ص. 25). ليسدل الستار على الحياة التي تجمع بين الأب وابنته التي بدأت رحلة جديدة مع الجدة، والتي كان من شأنها أن تعمق الصراع النفسي لديها بسبب ازدواجية المكان التي وضعتها تحت الثقافتين، ودفعت بها إلى البحث عن عش جديد لترقد فيه وهو الوطن الأم. لقد بدت الصورة التي قدمتها الكاتبة للمدينة الغربية مخالفة تماما لما اعتدنا عليه من صور معبرة عن الحضارة الغربية من فنادق ضخمة وشوارع مكتظة ومختلف مظاهر التقدم، حيث إننا لا نلمس أي إعجاب من الوالد أو ابنته اتجاه هذه المدينة، وإنما كان حلمهما طيلة أحداث الجزء الأول هو العودة إلى الوطن.

ب. نابلس

ظهرت مدينة نابلس في رواية "الميراث" وقد اختلفت معالمها الوظيفية بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية الجديدة بعد أوسلو، وقد سيطرت الدلالات السلبية لهذه المدينة من خلال عرض تأثير المكان على الأحوال النفسية لشخصياتها وتأثير الشخصيات على المكان، فهي نموذج المكان "المصور من خلجات النفس وتجلياتها وما يحيط بها من أحداث ووقائع، أي من خلال الحالة النفسية التي يكون فيها الروائي شخصيات روايته" (شاكر النابلسي، 1994، ص. 15)، وبما أن الكاتبة ابنة مدينة نابلس المعروفة ب"جبل النار"، فقد عملت على تخصيصها أكثر من غيرها من الأماكن في أغلب رواياتها.

تنقل الكاتبة القارئ إلى مدينة نابلس في روايتها "الميراث" من خلال عرض ووصف ما لحق بها نتيجة انتفاضة 1987، "انحبست نهلة في نابلس بفضل مقتل سائق صهريج للبنزين. أغلقت المدينة وحوصرت وفرض نظام منع التجول وبدأت حملات التفتيش ومنع التجول والإضراب وإغلاق الشوارع والدكاكين وتعفن الخضر والفواكه وامتلاء المدينة بالقاذورات وانفتاح المجاري والبلاعات وتهرؤ الأرصفة وانكشاف عظام المباني" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 110-111)، فالمكان جاء حاملا لملامح الانتفاضة وما خلفته من آثار سلبية جعلت مدينة نابلس تئن تحت وقع المحتل. كما جاء يحمل ملامح صمود أبنائها الذين لم يخضعوا لظلم واستبداد المحتل، فنجد الساردة تقول: "والناس هناك، في البداية، أعطوا الكثير، وقاموا بأعمال لا توصف من البطولات والاختراقات والتضحيات. كان الجميع بلا استثناء في المعركة حتى الأذنين" (المصدر نفسه، ص. 181)، لكن سرعان ما وقعت نابلس ضحية لظروف فرضت عليها، فبعدما كانت شوارعها القديمة مكانا مناسبا لنشطاء الحركة، أصبحت مقرا لأخذ الثأر باسم العمالة، والكاتبة أرادت الإشارة إلى فشل التنظيمات السياسية بعد أوسلو والتي يأتي في مقدمتها "النمر الأسود" الذي تحول هدفه من النضال ضد المحتل الصهيوني إلى السعي وراء تحقيق الأهداف الشخصية. ومن هذا المنطلق سيطرت الدلالات السلبية لمدينة نابلس في هذه الرواية ليعبر حضورها عن تمثيل رمزي لواقع فلسطين بعد أوسلو وما انجر عنه من أوضاع مزرية.

ج. القدس

ظهرت مدينة القدس في الرواية بشكل مختصر، فالكاتبة لم تعرض تفاصيل كثيرة، إلا أنها أشارت إلى وضعها السياسي بعد أوسلو، فـ(زينب حمدان) العائدة من أمريكا من أجل الميراث اكتشفت القدس رفقة زوجة أبيها (فتنة)، نجدها تقول:" على يدي فتنة اكتشفت القدس. من شرفتها الشرقية نطل على الأودية والزيتون وحديقة جامعة تبشيرية لها ردهات تنتهي بأدراج عريضة وقطاين وأزهار مشعة خلف زجاج طويل عريض. ومن شرفتها الغربية والمطبخ نرى الأقصى بقبته اللامعة ومآذنه وسور القدس ومبانيها ذات التاريخ. ومن سطح منزلها العالي رأيت الكنائس والجرسيات ومقابر متعددة الأديان وأشجارا غامقة الألوان وصخورا بيضاء وأرضا جرداء بنية ورمادية" (المصدر نفسه، ص. 78)، فالكاتبة قدمت وصفا خارجيا لمدينة القدس دون معايشة حقيقية لها، فهي تصفها كما لو أنها تحمل صورة فوتوغرافية لها، لكنها قامت في الوقت نفسه بالتلميح إلى معاناة القدس في ظل الاحتلال حيث تغيرت ملامحها وأصبحت القذارة تملأ شوارعها، "ثم اصطحبتني لوادي الجوز، ووادي الجوز ليس بواد ولا الجوز جوز، هو حي قديم جميل كان جميلا ثم اتسخ" (المصدر نفسه، ص. 76). وفي مشهد آخر نجدها تتحدث عن وسائل التضييق التي انتهجها المحتل الصهيوني لمنع الفلسطينيين من زيارة القدس أو حتى

الدخول لها بهدف عزلها عن محيطها العربي والإسلامي، بالإضافة إلى سعيه الدائب لتهويد المدينة ونزعها من أصحابها الشرعيين، "مذ فصلوا القدس عن الضفة، باتت القدس دولة أخرى لها حدود ومعايير ونقطة تفتيش وهويات ولا تنقصها إلا الفيزا" (المصدر نفسه، ص. 138).

2.1.3. القرية

وادي الريحان: كانت (زينة) في الرواية هي بوصلة القارئ للتعرف على قرية وادي الريحان، حيث قامت بوصفها منذ مشارفها عندما تركها سائق السيارة الذي أحضرها من المطار وتركها عند المدخل خوفا من الرشق بالحجارة. هناك بين الحفر والتعاريج والنباتات الخشنة مشت (زينة) في طريق مهجور لتصل إلى القرية التي طالما حملتها في ذاكرتها وحلمت برؤيتها أملا في إيجاد الملجأ الذي يبعث في نفسها الطمأنينة ويعيد لها الإحساس بوجودها الذي فقدته منذ سنوات. لكن اللقاء الأول بهذا المكان ولد داخلها صدمة جديدة حيث أدركت منذ عبورها الخط الأخضر أن المكان الذي جاءت تبحث عن ذاتها فيه محاط بسياج يصعب اختراقه، فنجدها تقول:" ولفت نظري ذاك الفراغ وذاك السكون، فلا ناس ولا سيارات ولا أولاد ولا مارة، فكل شيء جامد هامد. حتى الكلاب أمام الدور لا تنبح، والقطط تمشي تحت أشعة الشمس الساطعة ببطء وبلادة. وروائح الزبالة والزبل وعبير أشجار الكينا تشكل مزيجا غريبا ملأني بالحزن والاكتئاب" (المصدر نفسه، ص. 43-44). إن تصوير المكان بالنسبة للرواية الفلسطينية التي عبرت عن مكان محتل يكتسب خصوصية تتمثل في حرص الروائي أثناء تشكيله على "أن يكون بناؤه منسجما مع مزاج وطبائع شخصياته، لأنه يجب أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي تعيش فيه أو البيئة التي تحيط بها" (حسن بحراوي، 1990، ص. 30)، ولهذا ظهرت قرية وادي الريحان في هذه الرواية بصورة سلبية حزينة نتيجة القصف الإسرائيلي الذي خلف آثار الخراب والدمار في كل مكان من جهة، كما كانت بمثابة الملجأ الذي عاد إليه المغتربون ليبحثوا عن أصلهم و ذواتهم التي سرقتها الغربة منهم من جهة أخرى.

2.3. المكان المغلق

البيت: يشكل البيت الفضاء الذي يحتضن بداية العمر، والصورة الأولى الراسخة في ذاكرة الإنسان، "فهو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات أحلام اليقظة، ويمنح الماضي والحاضر والمستقبل ديناميات مختلفة، ينحي البيت عوامل المفاجأة ويخلق الاستمرارية، ولهذا دون البيت يصبح الإنسان مفتتا" (غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، 1984، ص. 91). كان بيت العم (أبو جابر) هو أول محطة لـ (زينة) بعد وصولها إلى قرية وادي الريحان، وبعد أن صدمها اللقاء الأول بها نتيجة مظاهر التخريب وانتشار الروائح الكريهة والقمامة في كل مكان، إلا أن إعجابها بالبيت العائلي أعاد إليها بعضا من الراحة النفسية، "كان بلاط المدخل مازال رطبا من أثر الشطف، وأحواض النباتات المتسلقة والأزهار مازالت تلمع من أثر الماء، والجو يفوح برائحة النظافة والياسمين وأزهار كثيرة. ومن وراء سياج داخلي يفصل المدخل الضيق عن بقية الأرض المحيطة بالدار، لمحت طرف حديقة تعج بشتى أنواع الأزهار والأشجار وصناديق النحل وفراش يطير. وهالني الفارق الجسيم ما بين الداخل والخارج. فطول الطريق ما رأيت إلا الزبالة والحيطان الملطخة والشوارع المملوءة بالخردة ومياه المجاري" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 45). إن الفرق بين قرية وادي الريحان من الخارج وبيت العم (أبو جابر) جعل (زينة) تعيد التفكير في هذا المكان، حيث كان البيت يجمع بين الأصالة والحضارة في الوقت نفسه، وظهر ذلك من خلال تفاصيله

الدقيقة التي وصفتها الساردة من حديقة مليئة بمختلف أنواع الزهور و حيطان مغطاة بلوحات مذهبة لآيات قرآنية كريمة وباقات الورد البلاستيكية ومطرزات لراقصة إسبانية... وقد عكست صورة هذا البيت ملامح النمط الاجتماعي والثقافي القائم، و من هنا يمكن القول أن" المجتمع الفلسطيني ليس مجتمعا مغلقا انغلاقا تعصبيا، ولا منفتحا انفتاحا تعسفيا يغتال الماضي بل كان بين ذلك وسطا" (عدوان نمر عدوان، 2005، ص. 144). أشارت الكاتبة من خلال وصف البيت كذلك إلى وضع أبناء العم التعليمي، وقد كان أربعة منهم حصلوا العلم ونالوا شهادات عليا في مختلف المجالات، وقد أرادت أن تؤكد من خلال هذا أن الفلسطيني رغم أوضاع بلده الصعبة، إلا أنه لا يتأخر عن طلب العلم وتحصيله من أجل الوصول إلى أرقى المراتب وأعلاها.

4. المكان وجدلية الشخصية

تلعب الشخصية دورا مهما في البناء الروائي، فهي"مدار المعاني الإنسانية، ومحور الآراء والأفكار العامة؛ ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما" (محمد غنيمي هلال، 2005، ص. 526)، ولا يمكن متابعة تطورات الشخصية داخل العمل الروائي بعيدا عن الفضاء المكاني، ذلك أنه يلعب دورا مهما في تشكيل ملامحها حيث إنها لا تنشأ من الفراغ، وإنما تحتاج إلى "وعاء يفرض عليها شكلا أو نسقا تجميعيا، تكتسب الجزيئات في بوتقته الصاهرة قيمها ودلالاتها وصلابتها الوجودية معا" (صبري حافظ، 1984، ص. 165)، فطبيعة الشخصية مرتبطة أساسا بالمكان الذي تقبع فيه فيسيطر عليها، كما تسيطر هي بدوره عليه ذلك أن العلاقة بينهما ترابطية وتقوم على التأثر والتأثير المتبادل، فهي ضرورية للكشف عن الشخصية وأعماقها ذلك أن المكان يكشف عن طبائعها ومستوياتها وانتمائها، فهو"وسيلة لرسم الشخصيات وحالاتها النفسية، ليصبح بذلك المكان عنصرا بنائيا ودلاليا مساهما في تحديد طباع الشخصيات وأمزجتهم" (امتنان عثمان الصمادي، 1995، . ص. 171).

لقد بدا تأثير المكان على الشخصيات واضحا في الرواية من خلال التفاعل بينها وبين مختلف أنماطه، حيث كان بمثابة المرآة لها، فأبدت ردود فعل متباينة. ومن بين النماذج التي أفرزها التأثر بالمكان في الرواية نجد:

1.4. نموذج الشخصية المقاومة

يتمثل هذا النموذج من خلال شخصية (زينب حمدان) التي ولدت ونشأت في أمريكا، حيث إنها كانت تحلم دائما بالعودة إلى الوطن، لكن أثناء إقامتها هناك عاشت (زينب) صراعا عميقا سببه وقوعها تحت تأثير الثقافتين، فهي من أب عربي وأم أمريكية، "ابتدأت القصة في نيويورك حين جاء الوالد من القرية وتزوج امرأة أمريكية، طبعا أمي، وحصل على البطاقة الخضراء" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 11)، بالإضافة إلى أنها عانت من انشطار الهوية ذلك أنها ضيعت لغتها واسمها وحتى عنوانها، "قبل ضياعي، لغتي ضاعت، هويتي ضاعت، وكذلك اسمي وعنواني. كان اسمي بالأصل زينب حمدان، ثم مع الوقت، أصبح زينة. كان الوالد محمد حمدان، ثم مع الوقت صرت بلا محمد أو حمدان. أصل الوالد وادي الريحان، وأنا ولدت في بروكلين. فزينة إذن بين البينين واللغتين والمفعولين، مفعول بروكلين والضفة، مفعول الجدة والوالد، ثم بلا فاعل أو مفعول" (المصدر نفسه، ص. 18). أصبحت (زينب) تسمى (زينة)، ثم فقدت نسبها إلى والدها (محمد حمدان) نتيجة الخطيئة التي ارتكبتها عندما بلغت الخامسة عشر من عمرها وحملت عبر علاقة جنسية عابرة من شاب

أمريكي، الأمر الذي دفع بأبيها إلى محاولة قتلها نتيجة العار الذي جلبته له، لكنها لجأت إلى جدتها الأمريكية أين تم الاتفاق معه أن يدعي أمام أقاربه أنه قتلها وغسل العار مقابل تركها تعيش مع الجدة بعيدا عن كل من يعرفها ويعرف قصتها. لقد كان تأثر الشخصية المحورية (زينب) بالمكان تأثرا كبيرا وواضحا، ويتجلى ذلك من خلال رفضها القاطع الانتماء إليه ذلك أنه يشكل بالنسبة لها مدينة الشتات حيث كان له الدور الكبير في تشكيل هويتها المضطربة، فهي تنفي أنها أمريكية كما تنفي أنها عربية كذلك عندما تقول: "أنا لست أمريكية. من أنت إذن؟ سألتني يوما حين كررت ذلك القول. لم أقل عربية لأنني لست كذلك" (المصدر نفسه، ص. 27)، كما تنفي ديانتها المسيحية والإسلامية في الوقت نفسه "أنضم إلى جمعية خيرية وأذهب للصلاة في الكنيسة كل أحد. لالا، أنا لست مسيحية، ولست مسلمة أيضا" (المصدر نفسه، ص. 31)، فهذه الشخصية لم تتمكن من الاعتياد على هذا المكان (أمريكا) رغم أنها حققت نجاحا باهرا فيه، فحصلت على جائزة أفضل دراسة في الجامعة ونالت الدكتوراه، ثم صارت رئيسة دائرة في علم الإنسان، وكانت تملك شقتين وسيارتين وتحضر حفلات أصحاب اليخوت والسفارات، إلا أنها كانت تحس دوما بالتعب والحرمان، ولم تتمكن من الاحتفاظ بالحس الإنساني نتيجة بحثها الدائم عن ذاتها المفقودة في هذا المكان الذي بات يشكل بالنسبة لها مصدر الإحساس بالضياع خاصة بعد تخلي الأب عنها الذي أحبته كثيرا، وكذلك تخليها عن ابنها الذي لم تشعر بأي إحساس اتجاهه، وتخلي والدتها الأمريكية عنها في الوقت نفسه، فكان لهذا الاغتراب المكاني والاجتماعي وحتى الروحي الأثر الواضح على شخصية (زينة)، "فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي لنوع من التشويه والاغتصاب تحدث عملية اغتراب وتشويه" (علي أسعد وطفة، 1998، ص. 247)، وهذا ما جعلها تعيش حزنا داخليا وانفصالا علائقيا مع عالمها الخارجي الأمر الذي جعلها تمرض وتستشير طبيبا نفسيا، "وحين تعبت من مرضي استشرت طبيبا نفسيا فقال على الفور: شعور بالغربة ومش أكثر" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 28)، وهذا ما يؤكده الدارس "إريك فروم" عندما اعتبر أن الإنسان المغترب مريض من الناحية الإنسانية" (حسن حماد، 2005، ص. 221). إن هذا الشعور المتزايد بالوحدة والغربة هو ما جعل ضمير الأنا يستيقظ داخل (زينة)، فبعد تعبها من رحلة التيه والضياع وفقدان الهوية في هذا البلد الذي لم تشعر يوما بالانتماء إليه، قررت السفر والعودة إلى الوطن من أجل البحث عن عالمها المفقود بعدما وصلتها رسالة من عمها الذي دعاها إلى ضرورة الحضور من أجل الحصول على حصتها في الميراث، فنجدها تقول:"ولم أضع وقتا طويلا في التفكير، بل اتخذت قراري بلا تردد، إذ أحسست ساعتها أني أقف أمام نافذة خلف ستائرها تكمن ملامح البلد الذي طالما حلمت برؤيته، وحنان الأهل الذين فقدتهم منذ الطفولة، ودفء الانتماء إلى جذور بحثت عنها بلا طائل. أخذت إجازة مفتوحة بعد أن أفهمت العميد أني لن أعود إلى واشنطن قبل أن أعرف من أهلي وأعيد الجذر إلى المقطوع" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 43).

2.4. نموذج الشخصية الوطنية

يمثل هذا النموذج شخصية (أبي جابر حمدان) عم (زينة) الذي يمتلك مزرعة يربي فيها النحل ويبيع العسل. وقفت الكاتبة عند هذه الشخصية ووصفتها من الناحية الشكلية ومن الناحية السلوكية، تقول: " عمي في بداية السبعينات، طويل وقامته جميلة لرجل في مثل صحته وسنه، وشعره خفيف وله نظارة وطقم أسنان ويلبس قميصا أمريكيا من مال الخليج، وكذلك ساعة سويسرية، يحكي ويلهث

ويسلم بحرارة وحيوية ويصافح بكف من صوان" (المصدر نفسه، ص. 47). وهي شخصية متعلقة بالمكان ومتأثرة به ويظهر ذلك من خلال رفضه اقتراح ابنه (كمال) المتمثل في ضرورة بيع المزرعة من أجل بناء مصنع، فنجده يقول: "بلا قلة عقل، بعد ها العمر وبعد ها الشيب واللي شفناه وتحملناه عشان الأرض، أبيعها بالسوق؟ الموت يسبق. طول ما أنا عايش على وجه الأرض ممنوع تنباع، هالبيارة أبا عن جد كانت إلنا، لعيلة حمدان، واللي يبيعها رح أغضب عليه" (المصدر نفسه، ص. 121)، فالأرض عنده لا تقدر بثمن لأنها مصدر السعادة والأمن والبقاء، ومن يتجرأ على بيعها يعتبر خائنا بالنسبة له. فهو يمثل جيل الآباء؛ جيل النكبة، فكان من الطبيعي أن يشعر بالانتماء إلى قريته وادي الريحان رغم محاولات الاحتلال الصهيوني نسف هذا الوجود وترسيخ الأفكار الوهمية من خلال بناء المستوطنات وتسمينها، لهذا ظل يتساءل قائلا:"ومستوطنة كرايات راحيل حول الوادي تطبق عليه وتتوسع. قالوا أوسلو قلنا آمين، فلماذا إذن مازالوا هناك فوق الهضبة في أعلى التل وحول السهل ومزرعته ويزحفون على الوادي وقرى الجيران؟ أهذا هو الحل؟" (المصدر نفسه، ص. 240).

ومع كل هذا الحب المتجذر في قلب (أبي جابر) اتجاه أرضه ووطنه، إلا أنه يفقد السيطرة على أبنائه الذين يمثلون جيل الانتفاضات والاتفاقيات، فرغم حرصه الشديد على غرس القيم الوطنية في قلوبهم وتعويدهم على الشعور بالاعتزاز والافتخار بانتمائهم إلى وطنهم من خلال تعلقه بمزرعته وعمله جاهدا على خدمتها، إلا أنه فشل في ذلك. وقد عبر عن غضبه في جملة من التساؤلات: "لمن خلفت يا أبو جابر؟ ولمن تحتفظ بمزرعتك؟ من يرثها؟ صرفت عليها دم القلب وشباب نهلة؟ رهنت الدار والسيارة وصيغة أم جابر ومرضها وما فرطت بدونم واحد. وهاهم كل واحد منهم بواد" (المصدر نفسه، ص. 271). والكاتبة هنا تطرح قضية مهمة حول مصير "فلسطين" مستقبلا أمام هذا الجيل الجديد الذي أصبح يقدم مصالحه الشخصية على حساب وطنه وأرضه في حين كان يفديها جيل الآباء بالنفس والنفيس.

تمثل شخصية (الست أميرة) نموذجا آخر للوطنية، فهي امرأة شديدة الانتماء إلى وطنها وجذورها. قدمت الكاتبة (الست أميرة) على أنها امرأة ذكية وذات شخصية قوية، بالإضافة أنها متحصلة على شهادة عليا وتجيد التحدث باللغات الأجنبية وتنتمي إلى عائلة عريقة بالقدس تدعى "آل الشايب"، فهي ابنة الحاج إبراهيم سليل الحسب والنسب وابن حامي الحرم وحافظ مفاتيح الأقصى. كانت تغتنم أي فرصة من أجل الإشادة بتاريخ فلسطين وحضارتها، "ألحت أن أشتري الصدف والصلبان ومجسم القدس للأصدقاء الأمريكان في واشنطن وفي نيويورك وفي كل مكان، وأن أشتري لنفسي ثوبا محلى بالتطريز الفلاحي لألبسه هناك في واشنطن لأكون سفيرة فلسطين وألقنهم درسا لن ينسوه: أن فلسطين ذات حضارة" (المصدر نفسه، ص. 88). إن رفض (الست أميرة) حمل ابنتها (فتنة) الصناعي من مستشفى هداسا خير دليل على تعلقها بأصلها الفلسطيني العريق، فقد تألمت عند سماع الخبر ولعنت ابنتها لأنها اختارت هذه الحيلة من أجل الاستحواذ على ميراث زوجها (محمد حمدان) وأعلنت أمام الجميع أنها حامل بولد ذكر؛ والذكر يحجب الميراث عن باقي أفراد الأسرة. فاعتبرت أمها أن هذا أقبح ما يمكن أن يفعل وخاطبتها قائلة: "حبل صناعي في هداسا؟ أي تزييف؟ أية أخلاق؟ أهذه أخلاق الشايب؟" (المصدر نفسه، ص. 188). لكنها تقبلت فيما بعد أن هذا الحفيد من ظهر اليهود وسيكون حفيدا لآل الشايب بقوة القانون، وسيبقى سرا في واد سحيق بعدما اعتبرته ابن الجو، وأرجعت سبب وجوده في الأصل إلى الحوادث والهزيمة وهي تشير هنا إلى

مخلفات أوسلو. فـ(أميرة) مقيمة بالوطن ولم تهجره مطلقا، وبالتالي أرادت أن "تستشف مستقبلا متفائلا يمكن أن يحدثه التمازج والقبول بين الشعبين" (نجمة خليل حسيب، 2012، ص. 169)، لكنه يظل مجرد بارقة أمل غير منطقية و"مجرد رجاء ترجوه أميرة كي يتخطى الناس الخسارة التي جاء بها اتفاق أوسلو ويعملوا بوعي لتحويلها إلى كسب يتحقق بتذويب اليهود في محيطهم العربي" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 169).

3.4. نموذج الشخصية المتمردة

يتمثل هذا النموذج من خلال شخصية (فيوليت)، وهي شابة مسيحية تعيش مع أمها بقرية وادي الريحان وتمتلك صالونا نسائيا. يتعرف القارئ على هذه الشخصية من خلال علاقتها بـ(مازن حمدان)، حيث إنها كانت تحبه وتسعى لنيل رضاه، لكن مشكلتها أنها تقدم جسدها في كل مرة للرجال على سبيل الحب ليقوموا باستغلالها وتكون العلاقة فاشلة على الدوام، " وبعد الخوري أحبت آخر في AUB، ثم آخر في رام الله، ثم آخر من قضاء حيفا ثم آخر في باب الخليل ثم مازن" (المصدر نفسه، ص. 226). إن تمرد (فيوليت) جاء نتيجة سلوكها، فطالما كانت متأثرة بالمكان تأثرا واضحا من خلال مناجاته عبر أغاني الموسيقى وأغاني الحب، لكنها تمكنت من التمرد على نفسها أولا، فنجدها تقول:" لا مش مازن، مازن ما عمره كان سببي، أنا اللي دايما سبب حالي، أنا اللي دايما ببني قصور من أحلامي، وكل مرة تخلص القصة وبتتركني بقلب مجروح" (المصدر نفسه، ص. 33)، ثم تمردت على المكان بأسره من خلال القرار الذي اتخذته والمتمثل في الهجرة إلى أمريكا لأن وادي الريحان بالنسبة لها أضحى عالما قاتما لم يجلب لها سوى الحزن والقحط بحيث جعل منها فتاة سهلة المنال لجميع الرجال على اختلاف ثقافتهم. "لكنها الآن لا تأبه، ولن تأبه، ستبيع الدار والصالون وتهاجر إلى فلوريدا وتعيش هناك مثل الملكة. ستروح وتجيء وتسبح وترقص وتغني وتشترك بناد أو فرقة، ستعيش حياة مريحة من غير عقد، من غير صراع، من غير نكد" (المصدر نفسه، ص. 256).

5. المكان وجدلية الزمن

بدت العلاقة بين المكان والزمن واضحة في الرواية، وهذا أمر منطقي لأنهما عنصران متلازمان بالضرورة، فلتحديد إطار قضية ما ومعالمها لا بد من اللجوء إلى هذين العاملين المشتركين. وعلى الرغم من" أنهما ليسا متعادلين من حيث القيمة والأثر، لكن العلاقة بينهما تكاملية" (جنداري إبراهيم، 2001، ص. 13).

إن القارئ للرواية يلاحظ بأن جمالية الزمن اصطبغت بالمكان، حيث تناولت الزمن النفسي (الزمن الداخلي)، والزمن الطبيعي/التاريخي (الزمن الخارجي)، "ولا شك أن هذين المفهومين يمثلان بعدي البناء الروائي في هيكله الزمني. أما الأول فيمثل الخيوط التي تنسج منها لحمة النص، وأما الثاني فيمثل الخطوط العريضة "السقالات" التي تبنى عليها الرواية" (سيزا قاسم، 1985، ص. 63).

لقد عاشت شخصيات الرواية صراعا مع المكان نتيجة الشعور بالوحدة والاغتراب سواء بالنسبة للمقيمين بالوطن أم العائدين إليه، كما عاشت صراعا مماثلا مع الزمن الذي يمكن حصره في:

1.5. الزمن الداخلي (النفسي)

ارتبط الزمن النفسي في"الميراث" بشخصية (زينة)، الشابة الفلسطينية الأصل والمغتربة بالولايات المتحدة الأمريكية أين حاولت هناك التحرر من قيود العادات والتقاليد الاجتماعية التي تتمسك بها العائلات الفلسطينية حتى بالغربة. فالزمن عندها هو"محاولة للبحث عن الأمان الذاتي، وعندما ترجع إلى وادي الريحان تكشف زيف زمن الأحلام في زمن أوسلو، فتدرك عبثية الهروب من أجل البحث عن الذات، فترجع إلى أمريكا مرة ثانية لخلق زمن جديد" (حفيظة أحمد، 2007، ص. 212). لقد امتد الزمن أعواما طويلة ليشتمل الطفولة البعيدة لشخصية (زينة) التي طالما ساورها القلق من المكان الذي تعيش فيه، فكان تقدمها في العمر من بين أكثر الأمور التي تفزعها، "أنا الآن في الثلاثينات، وبعد عشرة أعوام أصبح في الأربعينات، وبعدها في الخمسينات فالستينات ثم أتقاعد وأموت. وماذا يبقى بعد الموت؟ وماذا حتى قبل الموت؟ ماذا سيبقى في جعبتي للستينات؟ وكيف أكون" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 30-31). فالزمن بالنسبة لها عبارة عن سنوات تمضي بحيث تؤثر على ملامح وجهها وجسدها في مكان غريب جعلها مع الأيام تتعب من وحشته وتحن إلى الماضي في محاولة منها لإيجاد ذاتها حتى أصبح هذا الزمن متجمدا شأنه شأن (زينة) التي أرهقها التفكير في الماضي وما ضاع.ويتجلى الزمن النفسي أيضا في "الميراث" في شخصية (نهلة) الأخت التي أفاقت فجأة فوجدت نفسها ابنة الخمسين، فراحت تحاول إنقاذ ما تبقى من أنوثتها، "ستنسى الدنيا وما فيها، تنسى السهر والقهر والهم، تنسى السنوات الخمسين وبروز الشيب ودوار الدورة والهبات" (المصدر نفسه، ص. 98). إن محاولة نجاة (نهلة) من محنتها وهموم الوحدة جعل منها شخصية عنيدة لا تهتم بتقدمها في السن بعد أن أضاعت شبابها في العمل بالكويت من أجل راحة إخوتها ومطالبهم، فنجدها تقول: "نهلة الحلوة، نهلة الشاطرة، نهلة العيوقة وست الكل صارت خمسين. آه يا وعدي! صرنا خمسين؟ معقول كبرنا وعجزنا؟ معقول الشباب راح عالآخر، معقول الخمسين" (المصدر نفسه، ص. 99). يحتل الزمن مساحة واسعة من تفكير(نهلة) شأنه شأن المكان، فهي لم تقاوم محنتها وشعورها بالوحدة وتقدمها في السن بمعزل عن الزمن، فرغم منع التجول وانتشار الرشاشات والسماعات والقنابل بوادي الريحان، إلا أنها لم تتوقف عن التفكير في الوضع الذي آلت إليه، فبعدما كانت الشابة الجميلة المثقفة، تجدنفسها في عمر الخمسين دون تحقيق شيء، "هذا اللي نلته من عمري، كلهم، كلهم عصروني مثل الليمونة وراحوا لحالهم وداروا الدنيا، وداروا ظهورهم، طول عمري أسدد شيكات وأربي، وأقول: آمين، وأقول: يا لله بكره ألاقيهم لما أحتاج، وهايني لا بكبري ولا بصغري ألاقي واحد يسندني، أو يسأل عني ولو مرة، السنة ضاعت وكمان سنتين، وسنة ورا سنة والعمر مر وسنين ضاعت، وصحي تلقيتني ختياره بلا جوز ولا بيت ولا مين يناديني يا ماما " (المصدر نفسه، ص. 70-71). وهذا ما جعل الإحساس بالزمن الثقيل يبلغ ذروته لديها، فيتضح بذلك الدور الذي يؤديه الزمن في حياة هذه الشخصية ذلك أنه "يرتبط بالشخصيات ارتباطا وثيقا، ويدخل في نسيج حياتها الداخلية، ويتلون بتلون حالتها النفسية والشعورية، فيطول أو يقصر تبعا لتلك الحالة" (سيزا قاسم، مرجع سابق، ص. 66).

ظهر الزمن النفسي كذلك مع شخصية (مازن) العائد إلى أرض الوطن بعد قضاء سنوات طويلة ببيروت، قدم (مازن) إلى الوطن حاملا معه أحلاما كثيرة -عودته كانت عقب أوسلو- لكنه عاش في صراع زمني سببه المنفى من جهة، والوطن المثقل بالهموم والمآسي من جهة أخرى، "تمتم بشرود: وبعد بيروت والأضواء وادي الريحان! وهذا الكبت وادي الريحان! وهذا اليأس والناس والبؤس والتخلف، وادي

الريحان! أنا روحي هناك، أنا كنت هناك وكيف وصلت هون؟" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 64). إن بيروت تمثل بالنسبة له أول الجراح وآخرها ذلك أنه ترك كل شيء جميل فيها ليصطدم بواقع وادي الريحان التي باتت تمثل بالنسبة له سجنا لأنه لم يستطع تحقيق أحلامه التي حملها من المنفى فبقيت حبيسة المكان والزمان، لذا جعل لنفسه عالما خاصا به حيث بقي متمسكا بثوابته الوطنية التي طالما تغنى بها، وهنا "فقد الزمن معناه الموضوعي، وأصبح منسوجا في خيوط الحياة النفسية" (سيزا قاسم، مرجع سابق، ص. 73).

2.5. الزمن الخارجي (التاريخي)

ارتبط الزمن الخارجي في "الميراث" باتفاقية أوسلو التي وقعت سنة 1993 وما تبعها من أحداث أثرت على كل من الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيث إنها واكبت واقع القضية الفلسطينية خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخها. لقد استفادت الروائية "سحر خليفة" من الزمن التاريخي في استثمار وتوظيف الذاكرة الجمعية من أجل توثيق ما غفل التاريخ عنه حيث "كانت المهمة الأساسية للروائي تأريخ الأحداث التي تتصل بشخوصه في مرحلة تود الرواية رصدها" (غدير رضوان طوطح، 2006، ص. 220).

إن اصطدام (زينة) بالواقع الاقتصادي للوطن جعلها تقف مذهولة، فانتشار ظاهرة المشاريع مع بداية مجيء السلطة الوطنية الفلسطينية أصبح مركز اهتمام الكثيرين الذين يرغبون في الحصول على الربح السريع خاصة مع قرفهم من فقر الحرب والانتفاضة والفوضى ومختلف مظاهر العنف التي خلفها المحتل الصهيوني، "الربح السريع هو المسألة، فالكل سريع ومستعجل، وتسمعهم في كل مكان يقولون: شبعنا كلام، اليوم القرش هو اللي بيحكي. وانهال الناس على المشاريع ذات الخدمات والسياحة والأكل والشرب من غير هدف إلا الربح، أما حلم التصنيع وتايوان الشرق فقد بات جزءا من ماض مليء بالأحلام المندثرة، كلها أحلام، كلها أوهام فكوابيس" (سحر خليفة، مرجع سابق، ص. 129).

وإذا أردنا الحديث عن الإطار الزمني العام للرواية، نجد بأنه ممتد من وصول (زينة حمدان) إلى قرية وادي الريحان الواقعة بالضفة الغربية إلى غايتها عودتها إلى أمريكا،وقد استمرت هذه الفترة حوالي تسعة أشهر- منذ بداية حمل فتنة زوجة والدها إلى غاية ولادتها- جاء البناء الزمني في الرواية تداخليا تصاعديا حيث قام على الصراع بين الماضي والحاضر، وإذا أردنا تحديد أهم الأحداث التي جرت في الزمن الماضي هي:

- هجرة (محمد حمدان) إلى أمريكا واستقراره هناك بعد أن أصبح أبا لزينب.
- تمسكه بتقاليد المجتمع الشرقي ومحاولة تعويد ابنته عليها.
- هرب (زينب) من منزل أبيها بعد حملها بولد غير شرعي وافتراقهما.
- نجاحها في حياتها العملية والأكاديمية.
- معاناتها النفسية نتيجة شعورها بالضياع والتيه في هذا المكان بعد أن فقدت أباها وأمها وابنها، واتخاذها قرار العودة إلى وطنها من أجل إيجاد ذاتها وأصلها.

أما بالنسبة لأهم الأحداث التي جرت في الزمن الحاضر فهي:

- وصول (زينة) إلى قرية وادي الريحان وتعرفها على أفراد عائلتها.
- اصطدامها بواقع الوطن بعد أن كانت ترى فيه المكان الذي سيخرجها من حالة التيه والضياع التي عاشتها بأمريكا.
- محاولتها الاندماج مع أفراد أسرتها من خلال المشاركة في المشروع الثقافي.
- قرارها العودة إلى أمريكا بعدما وجدت إحساسها وذاتها.

وبهذا تكون قرية وادي الريحان نقطة التقاء الزمن الماضي بالحاضر بالنسبة إلى زينة ذلك أنه لحظة وصولها إلى القرية استرجعت الأحداث الماضية التي وقعت في حياتها، والتي وردت بطريقة غير متراتبة زمنيا، أما بالنسبة للأحداث الواقعة بالحاضر، فقد وردت متراتبة متصاعدة زمنيا. ليجد القارئ أن الرواية بدأت بوصول (زينة حمدان) إلى قرية وادي الريحان وانتهت باتخاذها قرار العودة إلى أمريكا ليكون المكان نقطة لبداية الرواية ونهايتها، لكن حالة (زينة) عند مجيئها تختلف كليا عن حالة عودتها حيث أسهم المكان بشكل كبير في مساعدتها على إيجاد إحساسها وأصلها المفقودين.

خاتمة

في ختام قراءتنا لرواية "الميراث" واستجلاء الدلالات الكامنة وراء توظيف عنصر المكان، توصلنا إلى جملة من النتائج مفادها أن الرواية الفلسطينية المعاصرة عبرت هي الأخرى عن موقفها اتجاه اتفاق أوسلو وما تبعه.

- عبرت الكاتبة "سحر خليفة" من خلال روايتها "الميراث" عن الاتجاه الواقعي الرافض للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي وصل إليها الشعب الفلسطيني عقب اتفاقية أوسلو وذلك من خلال نقد مختلف جوانب الحياة للسلطة الوطنية الفلسطينية. وقد احتل المكان بأنواعه وأشكاله المتعددة في هذه الرواية مساحة واسعة حيث عملت الروائية على تصوير الواقع الفلسطيني وتغيراته من خلال عرض وتقديم هذا العنصر الروائي- المكان- بأنماط مختلفة.

- بدا المكان حاضرا من خلال العتبات النصية (الغلاف، العنوان، الإهداء) التي جاءت مدخلا للنص الروائي القابع خلفها.

- إن الفلسطيني العائد من الغربة والمنفى كان يأمل أن يجد في أرضه الجنة الموعودة، لكنه وجد وطنا أرهقته الأزمات المتوالية بسبب سيطرة الاحتلال الصهيوني،لذا ركزت الكاتبة على ذكر الجوانب السلبية أكثر من الإيجابية أثناء تشكيل المكان بنوعيه (مغلق ومفتوح) من خلال تكرار صفات الخراب والدمار وغياب النظام وانعدام النظافة،والسبب في ذلك يعود إلى الحالة النفسية المتأزمة التي تمر بها الشخصيات نتيجة حالة الشعور بالضياع التي تعكس معاناة المواطن الفلسطيني.

- إن حركية الشخصيات الروائية وفاعليتها جعلت منها مؤثرة في المكان ومتأثرة به في الوقت نفسه، حيث يجد القارئ فيها الشخصية المقاومة والوطنية والمتمردة.

- إن البناء الزمني في الرواية جاء تداخليا تصاعديا ليتناسبوالمكان الذي جسد إحساس الشخصيات الروائية التي ارتبط بها كل من الزمن النفسي والتاريخي.

قائمة المراجع

1- زكي العيلة، 2003، المرأة في الرواية الفلسطينية 1987-2000، منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة، رام الله- فلسطين، ط1.

2- عبد الرحمن ياغي، 1999، النقد التطبيقي مع روايات فلسطينية، دار الشروق، عمان، د.ط.

3- مراد عبد الرحمن مبروك، 2002، جيوبوليتكا النص الأدبي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط.1.

4- عيسى برهومة، 2007، سيمياء العنوان في الدرس اللغوي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع97، مجلد 25.

5- جميل حمداوي، 2006، لماذا النص الموازي؟ مجلة الكرمل، ع. 88-89، فلسطين.

6- سحر خليفة، 1997، الميراث، دار الآداب، بيروت، ط.1.

7- حسن محمد حماد، 1997، تداخل الأنواع في النصوص العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

8- مصطفى الضبع، د.ت.، سحر خليفة أيقونة الرواية الفلسطينية، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث، الجزء الرابع.

9- عبد الفتاح الحجمري، 1996، عتبات النص: البنية والدلالة، شركة الرابطة، الدار البيضاء، ط.1.

10- عدنان عثمان الجواريش، 2003، حركة التجريب في الرواية الفلسطينية من الستينات حتى عام 1995 دراسة أدبية، جمعية العنقاء الثقافية، الخليل-فلسطين، ط.1.

11- كريمة زكي أحمد نصر، 2015، الاتجاه الاجتماعي في روايات الكاتبة سحر خليفة، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة الأزهر، غزة.

12- شاكر النابلسي، 1994، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، بيروت، ط.1.

13- حسن بحراوي، 1990، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط.1.

14- غاستون باشلار، 1984، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.2.

15- عدوان نمر عدوان، 2005، المكان في الرواية الفلسطينية بعد أوسلو 1993، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.

16- محمد غنيمي هلال، 2005، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر، القاهرة، ط.6.

17- صبري حافظ، 1987، الحداثة والتجسيد المكاني، قراءة في رواية "مالك الحزين"، مجلة فصول/ مصر، م(4)، ع(1).

18- امتنان عثمان الصمادي، 1995، زكريا تامر والقصة القصيرة، المؤسسة العربية للدراسات، عمان، د.ط.

19- علي أسعد وطفة، 1998، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، بحث في إشكالية القمع التربوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، م(27)، ع(2).

20- حسن حماد، 2005، الإنسان المغترب عند إريك فروم، مكتبة دار الكلمة، القاهرة، مصر، د.ط.

21- نجمة خليل حسيب، 2012، التحولات السياسية والاجتماعية والجمالية في الرواية الفلسطينية على مشارف القرن الواحد والعشرين، مجلة تبيين، ع(2).

22- جنداري إبراهيم، 2001، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط.1.

23- سيزا قاسم، 1985، بناء الرواية"دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط.1.

24- حفيظة أحمد، 2007، بنية الخطاب في الرواية الفلسطينية النسائية 1950-2000، مركز أوغاريت الثقافي، رام الله، فلسطين.

25- غدير رضوان طوطح، 2006، المرأة في روايات سحر خليفة، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة بيرزيت.